

ابن البواب حين يصير محققاً

كتبه محمد فاروق | 15 أبريل, 2016



كان الوقت قريباً من الفجر ، حين نزولى قبل نداء الصلاة بقليل .. إذ فوجئ بواب العمارة التي أسكنها بعدد من صبية المراهقين يقذفون مدخل العمارة بوابل من الطوب والحصى ليقوموا بتكسير جزء من زجاج مرآة مدخل البيت ، على سبيل التسلّي والمعبثة والمرح الفارغ ، مع صرخات زجلة وضحكات متشفية ، لم تكن تلكم المرة أولى خطايا هؤلاء وتعديهم على مدخل بيتنا ، ما أدّى بالبواب إلى تعقبهم والجري وراءهم - مع اثنين من أبنائه الذكور ، خصوصاً وأنّ زجاج عربة أحد جيراننا المهبذين قد طاله حجر فكسره ، وكلفة إصلاحه ليست باليسيرة ، وفّر الصبية ذوى السنوات بين الثالثة عشر والخامسة عشر جميعهم ، ولم يستطع حارس العقار الظفر إلا بواحد منهم كانت له بنية ممتلئة ، وهيئة ضخمة ثقيلة ، حالت بينه وبين السرعة والمراوغة والفرار.

وكان المشهد مصرّياً بشدّة ، صبيّ مدان بجرم مشهود ، يتحلّق حوله الناس ، ويحاوره البواب وأبنائه مع انضمام الحاضرين من السكّان والمائة وأهل الفضول .. للوقوف على هوية شركائه الفازّين ، لكن الولد أبدى صموداً وبسالة ، وتكتماً على تعريف أصدقائه وشركاء فعله ، وبعد التلويح بالذهاب للقسم ، أو التعامل العنيف ، أو الحبس والتقييد بمدخل العمارة حتى الإقرار .. بعد هذا كله لم يزد الولد عن قوله وتسميته لرفيق مجهول

“أنا معملتش حاجة ، سفينة هو اللي عمل .. أنا برئ ، سفينة هو اللي حذف وكسر الإزاز”

وما سبق حال ، والتالى من هنا واقعة وقصة أخرى ، إذ يبدو أنّ إصرار الولد على الإنكار الدائب ألهم قريحة ابن البواب فاستلم ملف التحقيق زاعقاً متجهماً - وهو ذو الإحدى عشرة سنة - ونَهَرَ الولد الصامت باستفهام مدوّ وصبر قليل متعمّد

“فين سفينة ياض؟”

وكان ابن البواب - اسمه أحمد - يتقعر الأحرف - ياض بدل ياد - ويفخّم مخارجها ويذبذب لحن الصوت بجشّة مستجدة جعلت كل المتابعين ينسى الحدث ، ويطيل التركيز مع المذنب الصغير - الطويل صاحب الجسد الممتلئ - والمحقق الأصغر ذى العود الضئيل والنحافة الظاهرة ، والجرأة المنبثقة من تدرعه بالجمع المتسلّى.

ثم نفخ المحقق السعيد بحيثيته وحضوره زفيراً مسموعاً وأعقبه وعيداً يرن في أصداء الليل

“يعنى معاوشش تجول - تقول - فين سفينة ياض؟ طب أنا راح أعرف أخليك تتكلم”

ودخل أحمد لغرفة أبيه ، والملا من حوله شغوف ، مستمتع ، منتظرين إسفار مشواره ، والأخيلة مستفزّة ، والتصورات مرسومة ، وإن هى إلا بضع دقائق حتى عاد أحمد - الهارب من المدرسة - بعضا غليظة مطوّلة ، والأكثر إضحاكاً نظارة شمسية مفرط سوادها ، ونحن قبل الشروق بقرب الساعتين ، بدا من ضخامة نظارته كأنها هى التى تلبس وجهه وليس العكس ، وحين كان يتكلم كنا نتخيل تعبيرات وجهه التى استوعبتها النظارة وأخفتها مع الوجه المستور أسفلها.

أمعن أحمد في التهديد ، والاستنطاق ، والتوعّد ، بشكل أحال التهور مرتجفاً ، ووجدت نفسى أنسحب ذهنيّاً تماماً من الواقعة ، والمفارقة ، والضحكات ، لأضاهى “أحمد” الذى أعرفه قبل الحدث هادئاً قليل الكلام ، يطيل التأمل ، واللعب ، بأحمد الذى توخّش مفاجأة ، ثم أخرج من مخزون شخصياته نقيضه الفعلى الجاهز للحضور في خطة طوارئ مهيّأة ، مكتملة الأدوات ، الطاغية المبطون الغائب المستحضر ، الحقيقى المتوارى المصطنع المستدعى ، التحوّل ارتجالى تماماً ، وفق استدعاء طارئ لم يغيب عن الافتراض الطفولى في حالات السلم ، ما رأيت معه قبلها نظارة ولا عصا ، ولا حنجرة زائرة - من “تزار” لا “تزور” - مستخسنة تجليات صوتها.

مخيف جداً - أكثر من اللحظة - التدبير الوقائى الاستشعارى لها ، خاصة في مشروع أحلام طفل ليس له واقع حقيقى ، وذاك البلاء الحائق بدخيلة أطفال كهذا هو استشراف بؤسنا المجتمعى في مستقبله قبل يومه. فكرة أن تدخّر طاقة قهر وتحريك لوازمها على مدى مطوّل يجعلك تفتح أبواب الخيال لفئات أقل حظّاً كأطفال الشوارع والسجون.

إنه التجلّى التلقائى للطاغوت الكامن فينا مجتمعياً وفي تفاصيل التيه الذى اصطلحناه حياة ، يستوى في المقام إن كان تلقّاه في عمل فنيّ أو رنة يد الأسطى على استطالة القفا ، أو تصعيرة خدّ أحد السكان ، ربما تقطبية لمدّرس ، أو مجرد اختطاف حصته من الخبز - هم لا يرون اللحم - على يد أخٍ أكبر.

وقد كان صاحب “سفينة” هو ظرفية استجلاب الطغيان ، ذاك “الخلق” الذي يؤاخذنا ويخاويننا وينبذ في نواصينا ومؤسساتنا وجنابات البيوت ، كيف تكيّف الهارب من التعليم ، الفاشل في ورشتين ، الساكن في غرفة منحوتة استفرغاً مستقطعاً من بئر السلم ، من التهيؤ الآتي المطاع ، أين يُسكن آلياته ، وكم لديه مما لم نره؟ وكيف استأسد بالجمع المحتشد محيلاً للجميع إلى جند مستخدم لإظهار حلم المحقق ومنفذ العقوبة؟

تماماً كما يرتجلون المخترعات وآليات تسهيل الحياة في المجتمعات المفكرة ، فإن أبناءنا لا يحتاجون مدارس ولا مكتبات لتقوّص الاستبداد ، وإنما هو سليقة سلسلة تسيل في وادينا وصحراوات أنفسنا ، وأقصى وأقصى عقوبة لمجتمع أن يتم تمكين مثل هذا الحالم الصغير وأمثاله من رقاب حاليين بالحرية أو حتى بفرصة المجادلة العادلة بغير استخدام القوة الجمعية المُخرّسة

ونحن لا نعدم الطواغيت .. ربما لأننا لا نعدم الطواغيت!

(انصب النون في “نعدم” الأولى ، وضّمّها في الثانية ، واكسر ثورتك وحلمك في أول طارق يرتجل الطغيان فيك)

صدقني لن نَعْدَمَ هؤلاء ، لكن لا أعدك بألا يُعِدَمَ هؤلاء

مع مراعاة فارق التشكيل.

رابط المقال : <https://www.noonpost.com/11266>